مجلة قضايا تاريخية

المجلد 06 العدد 02 تاريخ الصدور : 2021/10/02

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

فلسفة عصر التنوير في فرنسا و دورها في تطور الفكر الاستعماري

The French philosophy of the Enlightenment and its role in the development of colonial though

د/ بوزريد صليحة

أستاذة محاضرة

المدرية العليا للأساتذة بوزريعة

bouzid.Saliha@yahoo.com

الملخص: يهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على فلسفة الفرنسيين في عصر الأنوار ودورها في تبلور الفكر الاستعماري، حيث شكلت هذه الأخيرة ، لحظة مفصلية في تطور الفكر الإنساني باعتبارها محررة العقل البشري من أي وصاية كانت، هذا التحرر قد أفرز مستندات إيديولوجية للاستعمار الأوروبي خلال القرن التاسع عشر و النصف الأول من القرن العشرين، فقد اقتنعت الدول الأوروبية بأنها تحمل أرقى القيم الإنسانية والكونية هذه القيم اعتقدت أن من حقها حمل حضارتها إلى الذين أقل حضارة منها، و كان الفلاسفة الفرنسيين السابقين في ذلك أمثال مونتسكيو و روسو. و بهذا من رحم فلسفة الأنوار ولدت الحركة الاستعمارية.

الكلمات المفتاحية: فلسفة الأنوار– مونتسكيو– فولتير– جون جاك روسو– الفكر الاستعماري– الحركة الاستعمارية.

Abstract:

This research aims at the philosophy of lights was a pivotal moment in the development of human thought as the liberator of the human mind of any tutelage. This emancipation produced ideological documents of European colonialism during the nineteenth and first half of the twentieth century. European countries were convinced that they bore the highest human values, I thought she had the right to carry her civilization to those who were less civilized than it, and the former French philosophers in the likes of Montesquieu and Rousseau. Thus, from the philosophy of the lights, the colonial movement was born.

Keywords: France; the philosophy of lights; Europe; colonial movement; Montesquieu and Rousseau.

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

مقدمة:

أسهم في انجاز دائرة المعارف 130 شخصاً من محامين وأطباء و أساتذة و كهنة وأعضاء من الأكاديمية وصناعيين و أصحاب معامل جلهم من حملة الألقاب الرسمية، والتي كان ثمنها في متناول البورجوازية المستنيرة، فكانت مؤلفاً برجوازياً. وكان يضم أهم الفلاسفة المتضلعون من جميع العلوم من أمثال فولتير و ديدرو، و رجال القانون من أمثال مونتسكيو، وعلماء الرياضيات من أمثال دالمبير، رجالاً منحدرين من مختلف درجات البورجوازية أو نبلاء، و عليه كان تفكير العصر بورجوازيا.

وعليه فإن القرن الثامن عشر، شرع الفكر الناقد بإنكار كل شيء، بزعزعة كل شيء، بإصلاح كل شيء: الفلسفة الدينية، فلسفة العلوم، فلسفة الطبيعة، فلسفة الفكر، فلسفة الأخلاق. والمميز أيضا أن كل فلاسفة القرن الثامن عشر كانت لهم كلمة حول السياسة، فاكتفى بعضهم بتلميحات متسترة، و اتخذ بعضهم أسلوب المجابهة عن طريق نظرية الدولة و القانون، و تجلى هذا الاستعداد خاصة في ثلاثة مؤلفات كبرى: روح الشرائع لمونتسكيو، العقد الاجتماعي لروسو، لوحة تاريخية لتقدم الفكر البشري لكوندورسيه.[1]

تجدر الإشارة في مستهل هذا العمل، إلى أنه، كما أن فرنسا غير منفصلة عن سواها من بلدان العالم، كذلك فلسفتها غير منفصلة عن سائر النشاطات الإنسانية، و لهذا الفلسفة الفرنسية موصولة السبب بالفكر الأوروبي والعالمي معاً، و لنحترس إلا يغيب عن بالنا بأن تاريخ الفلسفة غير منفصل عن تاريخ العلم، فنحن لا نستطيع فهم فولتير دون الالتفات إلى حالة العلم في عصره.

و من هنا كانت محاولتنا هذه، وهي تناول الفكر الفرنسي في القرن الثامن عشر و كيف أثر فلاسفة ذلك العصر على الوضع السياسي في فرنسا وعلي سياستها الاستعمارية؟ .

1- الوضع العام في أوروبا عامة و فرنسا خاصة قبل قيام الثورة الفرنسية

قبل التطرق إلى دراسة عصر التنوير يجب التطرق إلى الأوضاع السائدة في أوروبا وبشكل خاص في انجلترا وفرنسا بصفتهما الدولتين اللتين عرفتا نهضة فكرية وصراعات داخلية و حروب أهلية.

فقد عرفت انجلترا ثورة مجيدة أصبحت فيها الطبقة الارستقراطية تختار أخيار الدولة و أخيار الطبقة الحاكمة، و في القرن التاسع عشر بعد ثورة 1868م تأسست الحكومة على أساس أن الملك يحكم من خلال وزرائه الذين ينالوا التزكية

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

من البرلمان، و لكن بعد وفاة الملكة آن سنة 1714م، أصبح حزب الأحرار يختار الملك الذي يناسبه و يدير شؤون البلاد بنفسه، أما حزب المحافظين فيقوم بدور المعارضة، و تخلى عن نظرية الحق المقدس للملك و فكرة إعادة أل ستيوارت إلى الحكم ومن جهته حزب الأحرار جدد ثقته في الملك و أصبح لا يمانع في قيام حكومة مركزية قوية ليتحول بذلك الصراع من خلافات سياسية إلى من يعتلي الكرسي الحكم و صار بذلك النظام الدستوري مقبولا من كل الأطراف.

أما في فرنسا فإن الملك[2] و حاشيته يتلاعبون بالدولة بدون حسيب ولا رقيب الشيء الذي خلق طبقة ثرية من رجال الدين والنبلاء الذين كانوا يعيشون عالة على الشعب الفرنسي، بحيث كانوا يستولون على دخل الفلاحين وتملكون نصف الأراضي ومعفون من دفع الضرائب، و النبلاء كانوا يحتكرون العدالة.

أما الفرد، الرعية، فعليه أن يطيع هذه الإرادة من خضوع مطلق لدواعي المصلحة العليا. كانت إذن سلطة مستبدة في جوهرها، و يظهر ذلك ما ورد على الملك لويس الخامس عشر الذي قال أمام برلمان باريس في عام 1766م: " في شخصي فقط تكمن السلطة العليا، و من شخصي بالذات تستمد مجالسي وجودها و سلطتها، و إلي فقط تعود السلطة التشريعية بلا شريك و لا رقيب، و عني ينبثق النظام العام برمته." [3]

في القرن الثامن عشر حاول الملك الفرنسي إتباع سياسة خارجية مبنية على المواجهة و التحدي دون التفكير في المشاكل الداخلية، ودخلت فرنسا في صراع مع الدول الكبرى لبسط نفوذها و تنشيط تجارتها.

إن عدم أخذ المشاكل الداخلية مأخذ الجد و انضمام الطبقة البرجوازية المحرومة من النفوذ السياسي مع الجبهة الشعبية عبد الطريق لقيام الثورة الفرنسية.

2-أبرز الفلاسفة الفرنسيون

إن الشخصيات الفرنسية التي نحاول في هذا العرض تقديمها يعتبرون من أبرز فلاسفة عصر التنوير في أوروبا عامة وفرنسا خاصة، نظرا لتأثير أفكار هؤلاء على المجتمع الأوروبي و في المجتمعات الأخرى التي حاولت تغيير مجرى حياتها. سيتم التركيز على ثلاث فلاسفة هم: فولتير ، جون جاك روسو، مونتسكيو.

2-1: فولتير، فرانسوا: (1694م- 1778)

لعب فولتير، في الصراع التاريخي الذي خاض غماره مفكرو القرن الثامن عشر البورجوازيون ضد قوى المجتمع الإقطاعي القديم دورا استثنائياً و أساسياً على أكثر من صعيد، فقد كان واحد من مؤسسي حركة الأنوار و أكبر أبطالها نشاطاً و فعالية، و بهذا فهو الوجه المحوري لهذه الحقبة الفريدة و البارزة من تاريخ البشرية.

فولتير فيلسوف ومفكر فرنسي، اسمه الحقيقي فرانسوا ماري أرويه Arouet، ولد في عهد لويس الرابع عشر، حيث كانت السلطة الملكية المطلقة في أوجها، نشأ في باريس من أسرة بورجوازية، كانت أسرة أبيه تضم تجاراً و دباغين وبائعي

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

الأقمشة، ارتقى أباه إلى مرتبة كاتب عدل، يتعامل مع زبائن من ذوي الشأن و الجاه، أدخله والده حرصاً منه على مستقبله إلى كلية لويس الأكبر اليسوعية التي كانت تتمتع بسمعة طيبة. منذ سن مبكرة، اكتشفت مواهبه الخارقة فأصبح يقصد الصالونات الارستقراطية، فأصبح معروفاً كشاعر و رجل فكر.

اتهم بإهانة الوصي فيليب الثاني دوق أورليان، فعوقب بالسجن في الباستيل أحد عشرا شهراً، وهناك أعاد كتابة مسرحية " أوديب " ، و بدأ ملحمة عن هنري الرابع، فنال شهرة كبيرة. في عام 1726م أدين و سجن في الباستيل لاتهامه بإهانة أحد النبلاء، وأطلق سراحه عندما وعد بالرحيل إلى انجلترا حيث قضى فيها عامين، فأعجب بحرية الفكر السائدة هناك، كما أعجب بأفكار نيوتن و لوك، ألف رسائله عن الشعب الانجليزي بعنوان " رسائل فلسفية " 1732م، كتب أيضا تاريخ شارل 12، و هو من أروع كتب التراجم، بفضل مدام دو بومبادور أصبح فولتير مؤرخا في البلاط الملك، و عضوا بالأكاديمية الفرنسية، اشترك في دائرة المعارف الفرنسية، و كتب روايات فلسفية بأسلوب ساخر، منها "كانديد" 1759م و " زادج"، دفن في مقبرة العظماء " البانثيون ". جمعت آثاره في سبعين مجلداً ونشرت بعد وفاته.[4]

فلسفته السياسية

لم يكن فولتير فيلسوفا نموذجيا على شاكلة الفلاسفة المشغولين ببناء منهج عقلي وبناء فلسفي محكم بقدر انشغاله بهدم الثوابت والتقاليد البالية التي تمنع التفكير الحر من انطلاقته، فكان صراعه مع الكنيسة ليس باعتباره مهرطقا أو خارجاً عن تقاليد الكاثوليكية، بل كان هجوم فولتير منصباً على التدخل الكنسي في شؤون الحياة اليومية للفرنسيين، ومنتقدا الوجه القاسي للكنيسة الكاثوليكية التي لا تعرف التسامح.

اعتبر الخرافات من صنع وابتكار القساوسة والكهنة فهم الذين صنعوا علم اللاهوت كما أن الخلافات هي من صنع اللاهوت وهي سبب النزاعات المريرة والحروب الدينية، وفضح فولتير المجتمع الفرنسي في كتابه «رسائل إنكليزية» الذي عرف فيما بعد بـ»رسائل فلسفية» وقارنه بالمجتمع الإنكليزي الذي تغنى بفضائله، وانتصر لوضع انكلترا المتقدم على حساب وضع بلاده المتأخر وصب جام غضبه على فرنسا والفرنسيين لأنهم يأنفون عن سلوك درب العقل والتسامح الديني.[5]

كان فولتير ساخطا على الحكم المستبد السائد في فرنسا ، كما اعتبر طبقة نبلاء طبقة مغرورة بنفسها وعاطلة عن العمل، و وصف وضع التجارة والفلاحة المزري حيث كان للإقطاعيين دور بارزا فيهما ، بل قارن بين وضع فرنسا و انجلترا ، و بذلك كشف فولتير زيف المجتمع الفرنسي بكل عيوبه ونفاقه وزيفه وتخلفه، ويكفيه أنه قوض أركان صرح الخرافة

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

من أساسها، فقد استغل مواهبه الأولى في المحاماة للدفاع عن قضايا العقل، فلو لم يكن فولتير مفكرا كبيرا لكان واحداً من أعظم المحامين في العالم، لذلك فقد كان تفنيده لفكر الخرافة ودفاعه عن قيم العقل والتفكير الحر قويا جذابا.

صحيح أن تأثير فولتير في هذا المضمار لم يمن بقوة تأثير مونتسكيو و روسو، لكن هذا لا يعني على الإطلاق أنه من الممكن تجاهله و التغاضي عنه، ولا جدال في أن فولتير لم يورث الأجيال اللاحقة كتاباً واحداً مماثلاً لــ " روح الشرائع" أو " العقد الاجتماعي" فملاحظاته حول القضايا الاجتماعية و السياسية مبعثرة في مؤلفات شتى، و مختلفة بتأملاته.

2-2: مونتسكيو:

ولد البارون دو لابريد مونتسكيو شارل لويس دُو سِكُوندا في 18جانفي 1689م، و كانت ولادته في قصر لابريد بالقرب من مدينة بوردو الفرنسية الذي يبعد عنها بعشرة أميال، كان اسم أبيه جاك دُو سِكُوندا، و أمه فرانسواز دوينيل، تعود أصول عائلة أبيه إلى القرن السادس عشر، و هي من أهل القضاة إجمالاً، فقد كان جده و عمه قاضيا في برلمان[6] بوردو و هو ما وصل به حياته، كان فخور بنبالته و النبالة في نظره هي أفضل دعم للملكية و أفضل ضمان للحرية " **لا ملك لا نبالة لا نبالة لا ملك، بل مستبداً متحكماً.** "[7]

عرف شارل لويس في صباه ب " **مسيو دُو لابريد**"، توفيت أمه حين كان في السابعة من عمره، فلما بلغ الحادية عشر أدخل مدرسة أورَاتُوريان، حيث مكث فيها خمس سنوات، أظهار خلالها ميله للتاريخ.

توفي أبوه في سنة 1713م، و بعد مضي عام عن و.فاته أصبح مونتسكيو. قاضيا في برلمان بوردو، ثم عام بعد ذلك تزوج ابنة فارس نبيل من منظمة سان لويس اسمها حنة لارتيغ، رزق منها ابناَ و ابنتين.[8]

توفي عمه جان باتيست سنة 1716م، فأصبح رئيساً للمحكمة و ورث جميع أمواله و أصبح يلقب ب مونتسكيو.

كان مولعا بالبحث التاريخي و الدراسات القديمة، و هذا ما جعله ينتسب إلى الأكاديمية الرّجَوية (provincial) التي أنشئت في بوردو و قُبل فيها في أفريل 1716م، حيث ألقى فيها بعد قبوله بحثاً حو.ل " **سياسة الرومان في الدين**".

كما أنصرف أيضا للعمل في الحقل الأدبي و العلم، فقد أخرج سنة 1721م كتاب " الرسائل الفارسية " الذي لاقى إقبالا واستحساناً كبيرين، و قد طبع أربع مرات في عامه الأول.

استقر بعدها في باريس و انخرط في نادي " الانترسول" المشهور، ثم قُبل عضواً في الأكاديمية الفرنسية بتاريخ 24 جانفي 1728م. سافر الى مختلف الدول الأوروبية باحثا في الدساتير و النظم، فطاف في النمسا و هنغاريا، ثم ايطاليا

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

والبندقية حيث أقام نحو عام، توجه بعدها إلى انجلترا حيث لبث فيها ثمانية عشر شهراً، فأعجب بأخلاق الانجليز وسياستهم، اختارته انجلترا ليكن عضوا في الأكاديمية الملكية بلندن، اعتبر النظام الانجليزي مثالاً للحكومة الصالحة.

عاد مونتسكيو إلى فرنسا و شرع في كتابة أشهر كتبه " روح الشرائع"، كما ألف سنة 1734م كتاب " تأملات حول أسباب عظمة الرومان و انحطاطهم"، في 1746م عين عضواً في مجمع العلوم الملكي ببرلين، و في 1748م طبع كتابه " روح الشرائع " في جنيف، و هو كتاب مؤلف من واحد و ثلاثين باباً موزعاً بين ستة أجزاء، لم يؤلف في الغرب ما يفوقه، و هو أعظم كتاب فرنسي في القرن الثامن عشر، و كتاب جامع لفلسفة التشريع و حكمة التاريخ و الفقه الدستوري، و هو أكثر الكتب تأثيراً في الأزمنة التي جاءت بعده. فقد استوحت الدساتير الفرنسية عند قيام الثورة الفرنسية من روح الشرائع، و كان له الأثر البالغ في وضع دساتير العالم حتى يومنا هذا و من الواضح انتحال الدساتير الأمريكية لمبادئه في فصل السلطات على الخصوص و روح الشرائع الأثر الذي عُدَّ به مونتسكيو واضع علم السياسة و علم الاجتماع في الغرب.[9]

إن مونتسكيو، هو على التحديد، أول فلاسفة القرن الثامن عشر وهو ينتمي إلى اثنين من كبار مذاهب القرن السابع عشر وهما مذهب ملبرانش[10] و مذهب ليبنتز[11]، ولهذا فلسفة القرن الثامن عشر كانت امتداداً لما قبلها إن فكرة طبيعة الأشياء، و فكرة القوانين من حيث أنها نسب وعلائق متنوعة عن هذه الطبيعة، تسودان فلسفة مونتسكيو السياسية و هو يعلم، إلى ذلك أن نتائج قوانينه تختلف بحسب الأحوال العامة و بذلك يكون قد جمع بين خصوصية النتائج، و عمومية الأسباب.[12]

فلسفته السياسية

إن إعلان مونتسكيو على أنه مؤسس علم السياسة هو حقيقة حاصلة. لقد قالها أوغست كانط و أعاد قولها دوركهايم و لم ينكرها أحد جدياً.[13]

حارب مونتسكيو من خلال كتابه " روح الشرائع" محاولات الإصلاح، حيث حاول أن يثبت أن الدساتير السياسية ترتبط ، وفاقا لنواميس طبيعية حقيقية، بظروف الإقليم، و التربة، و نوع الحياة، و طبائع الشعوب، و أخلاقها، ودينها، فاتخذ ذلك حجة للقول بأنه لا يجوز مس الدستور الفرنسي، عظم دستور الانجليزي لان السلطة التنفيذية يتولاها الملك و التشريعية ممثلو الأمة، أما السلطة القضائية يتولاها القضاة والتي تكون حكما و حارسا للدستور.[14]

كما حمل كتابه أيضا بعض المعاني التي تسعى إلى تفسير مظاهر الاستعمار و تبرر سياسته فقد شجع الأوروبيون على استعباد شعوب إفريقيا لاستغلالها نعت أيهم بصفات شنيعة قائلاً جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس و انفها أفطس شنيع[15].

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

2-3: جان جاك روسو (1712-1778م)

المعروف بـ « مجنون جنيف» لغرابة أطواره، سيكون واحدا من أهم منظري الثورة إن لم يكن أهمهم على الإطلاق، بل إن مؤلفه الرئيسي «العقد الاجتماعي» سيعد بلا جدال «إنجيل الثورة» الفرنسية.

حياة روسو كانت السبب فيما ناله من تجاهل حينا وصخب وتقدير في أحيان أخرى، فـ»روسو» الذي ولد لأسرة تنتمي إلى البرجوازية في مدينة جنيف، كان أبوه ساعاتي، تطفل في أغلب الأحيان على العظماء، تميز بخجله، و.من تم كبريائه، كما تميز بسعة المخيلة حيث صنع منها عوالم مصنوعة لأجله، في 1750م، اهتدى إلى طريقة، حين علم بموضوع المباراة الذي طرحته أكاديمية ديجون، تشجع روسو بموافقة ديدرو، و عالج الموضوع المطروح " **هل أسهم إحياء العلوم والفنون في تنقية الأخلاق**"، فاز بالجائزة في 23 أوت 1750م، حيث دافع عن رأي معاكس لرأي الفلاسفة لقد فسدت نفوسنا بمقدار تقدم فنوننا و علومنا نحو الكمال".[16]

وهاجر إلى باريس حيث الأضواء والشهرة منخرطا في حياة الصالونات التي سيطرت على الحياة الثقافية الباريسية، وانغمس في تلك الحياة حتى الثمالة ثم انقلابه على هذا النمط من الحياة ووصفه بأقذع الألفاظ، بشكل فصله هو في كتابه الشهير «الاعترافات» الذي يعد نسيج وحدة في أدب السيرة الذاتية، في 1754م " خطبة في منشأ و أُسس التفاوت بين البشر" عرف هذا الكتاب أوسع انتشار عرفته مؤلفاته و أسهم من أي مؤلف أخر في نشر مبدأ المساواة.[17]

فلسفته السياسية

يبدأ روسو مشواره في النظرية السياسية بتأسيسه لفكرة السيادة عبر منظومة جديدة، و إن كانت هيئتها العقد الاجتماعي، إلا أنه لا يتم فيها التنازل عن تلك السيادة و لا يقسيمها، كما كان الفلاسفة السابقين، إذ تشكل الإرادة العامة روح الشعب و مصلحته العليا و هي حاملة السيادة، و. يحصل ذلك بحسب روسو بالتعاقد الاجتماعي في حالته الطبيعية التي ينعم فيها الأفراد بالهدوء و السلام والاستقرار، و ببداية تتطور حياة الإنسان، ذلك أن روسو يؤمن بالرؤية الأرسطية في تكوين المجتمع من الأسرة إلى الدولة.

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

يعد العقد الاجتماعي إنجيل الثورة و الوثيقة الأساسية للفلسفة السياسية للجمهورية الفرنسية، حيث شكلت نظريات روسو الآراء السياسية لليعاقبة. بل أثر العقد الاجتماعي على الأذهان و العقول عندما كانت الثورة البورجوازية في أوجها، فقد جاء صدور هذا الكتاب بلا شك علامة في تطور طرأ في ذلك الزمن على عقلية الشعب، و أمارة على أن شرائح جديدة أكثر ديمقراطية من مجتمع محروم من امتيازات في فرنسا قد تفتحت على الحياة السياسية.[18]

3- نتائج عصر التنوير

من الانتقادات التي وجهت إلى عصر الأنوار كونها قد وفرت المستندات الإيديولوجية للاستعمار الأوروبي خلال القرن و النصف الأول من القرن العشرين، و يقوم هذا الانتقاد على المنطق التالي " **بما أن الأنوار تُقر بوحدة الجنس البشري، فهي تُقر إذن بكونية القيم، ولما كانت الدول الأوروبية مقتنعة بأنها تحمل قيماً أرقى من القيم السائدة عن عند غيرها من الأمم، اعتقدت أن من حقها حمل حضارتها إلى الذين هم أقل حظا منها، و كي تضمن نجاحها في أداء هذه المهمة كانت مجبرة على احتلال المناطق التي يقطنها سكان تلك الأمم، فإذن قد مهدت الطريق أمام الحملات الاستعمارية اللاحقة** ".

كوندورسيه[19] مثلا كان مقتنعاً بأن تنوير جميع البشر مهمة ملقاة على عاتق الأمم المتحضرة. لقد كان يحلم كوندورسيه بقيام دولة عالمية متجانسة، و يعتقد بأن تدخل الأوروبيين يساعد على الوصول إلى ذلك، و الحقيقة إن المناظرين لايدولوجيا الاستعمار الفرنسي سيلجؤون في غضون مئة سنة بعد ذلك إلى هذا النوع من الحجج لتبرير الاستعمار و على رأسهم جول فيري. فهم يزعمون أن من واجب الأوروبيين مساعدة الشعوب قليلة التحضر مثلما من واجبهم تماما تربية أطفالهم، لقد كتب بول لروا بولي Paul Leroy Beaulieu سنة 1874م، و هو أحد المناظرين للاستعمار و من المتخصصين في علمي الاقتصاد و الاجتماع و أستاذ بالكوليج دو فرانس، حيث ذكر سنة 1891م معتبراً الاستعمار استجابة لطلب مُلِح لأن حوالي نصف سكان الكرة الأرضية في نظره من المتوحشين أو الهمج يناشدون الشعوب المتحضرة التدخل لمساعدتهم .

و ليس من قبيل الصدف أن يصبح جول فيري Jules Ferry[20]، و هو المناصر لمجانية التعليم و إجباريته في فرنسا الداعية الأكبر للحملات الاستعمارية في الهند الصينية و شمال إفريقيا، بدعوى أن الأجناس الراقية مثل الفرنسيين والانجليز عليها واجب التدخل في شؤون الآخرين.

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

وهذا ينطبق تماما مع الماريشال بيجو Bugeaud أحد غزاة الجزائر في أواسط القرن التاسع عشر، لم يبحث عن التباهي بصنيعه لما وجد نفسه أرغم أمام مجلس النواب الفرنسي على تحمل مسؤولية المجازر التي اقترفت ضد الجزائريين الذي أكد في خطابه على تقديم المصالح الفرنسية حتى لو كانت على حساب الإنسانية .

و في كلمة أمام المجلس نفسه سايره توكفيل Tocqueville[21] في ذلك الوقت و الذي أعتبر أعمال العنف التي هي ضرورة مطلقة لتوطيد حكم الفرنسي في المستعمرات [22].

الثقة الأوروبية بقوتها المادية و تفوقها الأخلاقي، فضلا عن عجرفتها العرقية و عماها، و التواريخ الاستعمارية التي وثقت المشروع الاستعمارية الأوروبي؛ كيف جلبت أوروبا التقدم إلى مجتمعات شمال أفريقيا، منقذة إياها من عتمة ليل الخرافات و الجهل. و يتفق كارل ماركس و ألكس دي توكفيل، هنا، على أن الدور الفرنسي في الجزائر كان جلب الحضارة والتقدم من هذه الزاوية، وصفت المقاومة الجزائرية بأنها غير مجدية، وفي الحقيقة معادية للتقدم. ووصفت المجازر مثل مذبحة أولاد رياح التي أدت إلى قتل مابين 500 إلى 1500 جزائري في عام 1845م بأنها محزنة، لكنها ضرورية.[23]

رأت فرنسا نفسها بعد أن ألهمتها الثورات الصناعية والديمقراطية ،أنها في وضع مناسب على قمة الموجة التي تعبر المستقبل، و أنها وهبت القدرة على إعادة تشكيل المجتمعات بحسب مشيئتها. ومن خلال استخدام أدوات تطهيرية اجتماعية و سياسية جديدة(مثيل التعليم و الطب و الاعتقاد العلماني بالتقدم) ستعمل الدولة المستعمرة على تثقيف المجتمعات المحلية و إعادة قولبتها على درب التقدم. وفي الوقت عينه، سيؤدي انفتاح الاقتصاد المحلي على السوق، بتوجيه و تشجيع من الدولة المستعمرة، إلى إطلاق موارد كانت مجمدة سابقا بيد العادة الميتة، مثلما حصل في أوروبا نفسها.

إن الاستعمار الفرنسي الذي أفرزته في شمال أفريقيا من الناحية العملية أدى إلى كتابة تاريخ مجد الغزو العسكري الفرنسي، و مجيء ما سُمي الحضارة الفرنسية إلى الجزائر و تونس و المغرب على سبيل المثال، نجد أن الجزائر ثم تصويرها في مجلدات الاستكشاف العلمي للجزائر بأنها بلد متأخر ثقافيا، و متخلف اقتصاديا.

والأهم من ذلك أن عيبه الأساسي هو طريقته في تصوير عبء الإسلام، على مجتمع مثل عباءة ثقيلة، خانقا المبادرة و معيقا التغيير. وفي أغلب الأحوال، هيمنت معتقدات ما هو مقبول لدى الاستعمار عوضا من حكم تاريخي أكثر انضباط من الناحية الثقافية. إن مؤرخي الشعوب المستعمرة تصطدم للوهلة الأولى بسياج من الشروط الإيديولوجية[24] التي تعد جزء لا يتجزأ من نمط دفاع النظام الاستعماري.[25]

الأنوار كان عصر نهاية المطاف، و عصر حوصلة و تأليف، لا عصر تجديد جذري، فالأفكار الكبرى للأنوار لا تعود إلى القرن الثامن عشر، و هي إن لم تنحدر من العصر القديم تحمل على الأقل أثار أواخر العصر الوسيط و. عصر النهضة.

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

و الأنوار حركة امتصاص و مفصلة لأراء كانت فيما مضى متناحرة و. لهذا جاء عصر الأنوار يتسم بالعقلانية و التجريبية في الوقت نفسه، هي وريثة ديكارت مثلما هي وريثة لوك، وهي شغوفة بالتاريخ شغفها بالخلود، و بالطبيعة شغفها بالفن، و بالحرية شغفها بالمساواة، و تجد الإشارة أن مكونات فكر الأنوار غارقة في القدم، لكن عملية تركيبها جديدة إذ لم يقتصر الأمر على التنسيق فيما بينها، بل تجاوزه بخروج الأفكار من مَظانّ الكتب إلى عالم الواقع خلال فترة الأنوار بالذات.

حمل فكر الأنوار عبئه عدد كبير جداً من المفكرين أنتجت مدارس فكرية ما تزال تتصارع إلى اليوم، ثم إنّ عصر الأنوار كان عصر مناظرة أكثر مما كان عصر الإجماع.

إنّ أول سمة واضحة لفكر الأنوار، هو بروز مصطلحين هامين هما التحرر و الاستقلال اللذان وضع نوع من القيد المفروض على السلطة، بحيث صار لزاماً عليها أن تكون متناغمة من البشر، بمعنى أن تكون سلطة طبيعية لا سلطة فوق – طبيعية (Surnaturelle)، و على هذا الأساس أفرزت الأنوار عالما بدون أوهام، عالما خاضعاً من أوله إلى أخره لقوانين فيزيائية واحدة، و كذلك لميكانيزمات سلوكية واحدة فيما يخص المجتمعات البشرية.

إن الوصاية التي كان يعيشون تحت وطأتها الناس قبل عصر الأنوار كانت وصاية ذات طابع ديني في المقام الأول، سميت هذه المرحلة ب هيتيرونومي[26] Hétéronomie ، و لهذا نجد أن الأنوار ستوجه الانتقادات إلى الدين بالذات قصد فتح الطريق للبشرية حتى تأخذ مصيرها بيدها. لقد وجهت فلسفة الأنوار النقد إلى بنية المجتمع لا إلى مضمون المعتقدات، بل اتخذت موقف يتسم بالتسامح و حثهم على الدفاع عن حرية المعتقد.

خاتمة:

كان التنوير، على الرغم من انجازاته الكبرى إلا أنه راح يتأقلم مع الظاهرة الاستعمارية،ومع الامبريالية الغربية،بل وحتى مع العنصرية أحيانا، إن الخطاب الفلسفي لعصر التنوير كان يشرح كيف يمكن استعمار البدائيين بشكل أفضل وتسيير أمورهم بشكل أحسن بل والسيطرة عليهم.

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

كان نظام الرق يمثل مجد فلاسفة التنوير ومفخرتهم، فعلى الرغم من إدانة معظمهم لنظام الرق العبودي إلا أن بعضهم كان يجد له جوانب ايجابية. لنضرب على ذلك مثلا فولتير ومونتسكيو. صحيح أنهما كانا يعتقدان بأن الاستعمار والمتاجرة بالعبيد هما مضادان للعقل والعدالة البشرية.ولكنهما كانا يعتقدان أيضا بأن هذين الشيئين هما سبب التقدم المادي في أوروبا.وهو تقدم أدى إلى ازدهار العقل وتراجع العقلية الغيبية الخرافية المسيحية.من هنا الطابع التناقضي للمسألة.

يجب الإشارة بأن لامارتين وفيكتور هيغو وجول فيري و الاشتراكي ليون بلوم كانوا يشيدون بالرسالة الحضارية لبلدانهم وضرورة أن تقوم بتحضير الشعوب الهمجية كما كانوا يقولون آنذاك.وبشكل عام كانوا يعتقدون بأن أوروبا الحضارية المستنيرة سوف تجدد البشرية.

أيا يكن من أمر فان الاستعمار شكل أكبر خيانة للتنوير في أعلى مستويات الإنسانية.

الهوامش:

[1] أندري كريسون، **تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث**، ترجمة نهاد رضا، ط2، منشورات بحر المتوسط و. منشورات عويدات، بيروت، 1982،ص.ص 236-237.

[2] بقي المذهب السياسي الرسمي للحكم الاستبدادي الفرنسي في القرن الثامن عشر هو النظرية عينها التي كانت سائدة في عهد ريشيليو، و التي كانت تقول بلا محدودية السلطة الملكية المفروض فيها، إنها مستمدة مباشرة من الله. فسلطة الملك على الأرض توازي من منظور هذه النظرية، سلطة الله في السماء، وما الملك إلا صورة الله الحية و وكيله على هذه الأرض.

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

[3] ف . فولغين، **فلسفة الأنوار**، ترجمة: هنرييت عبودي، مراجعة: جورج طرابيشي، ط1، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، 2006، ص 17.

[4] **الموسوعة العربية الميسرة**، المجلد الثالث، ط2، الجمعية المصرية – دار الجيل، القاهرة، 2001، ص.ص:1803-1804. انظر أيضا: فولغين، المرجع السابق، ص.ص.24-25.

[5] برتراند رسل، **تاريخ الفلسفة الغربية**، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، مكتبة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1977م ، ص. ص 29-30.

[6] **البرلمان**: كان يطلق على ديوان القضاء الأعلى في ذلك الحين

[7] نور الدين حاروش، **تاريخ الفكر السياسي**، دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2009، ص 333.

[8] مونتسكيو، **روح الشرائع**، ج1، ترجمة عادل زُعيتر، دار المعارف ، القاهرة، مصر، 1953، ص11.

[9] مونتسكيو، المرجع السابق، ص. ص. 12-22.

[10] **ملبرانش**: **Malbranche**، (1638م-1715 م): فليسوف فرنسي، ولد في باريس، من أشهر مؤلفاته " التأملات"

[11] **ليبنتز** : (**LEIBNIZ** غوتفريت قيلهلم): (1646 م-1716م) رياضي و فيلسوف و مخترع ألماني، ولد في لايبسيك، حاول مع بوسويه دمج الكنيستين الكاثوليكية و البروتستانتية، و هو من أتباع الفلسفية المثالية، اشتهر بنزعته التفاؤلية,. له " **المونادولوجيا** " انظر: المنجد في اللغة و الأعلام، دار المشرق، بيرو.ت، 1991، ص502. و للمزيد من التفاصيل انظر: **الموسوعة العربية الميسرة**، المجلد الرابع، ط2، الجمعية المصرية – دار الجيل، القاهرة، 2001، ص.ص:2120-2121.

[12] جان فال، **الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر**، ترجمة الأب مارون خُوري، ط4، منشورات عويدات، بيرو.ت، 1988م، ص 44.

[13] لوي ألتوسير، **مونتسكيو السياسة و التاريخ**، ترجمة نادر ذكرى، دار التنوير للطباعة و. النشر والتوزيع، بيرو.ت،2006، ص 11.

[14] موسييه و لابروس، المرجع السابق، ص 101.

[15] Montesqueu, De L'esprit des lois, chapitre V, 1758 نسخة الكترونية

[16] رولان موسنييه و إرنست لابروس، **تاريخ الحضارات العام القرن الثامن عشر**، إشراف موريس كروزيه، نقله إلى العربية يوسف أسعد داغر و فريد داغر، المجلد الخامس، ط3، منشورات عويدات، بيروت،1994، ص.ص 95-96.

[17] يرى روسو أن الخطبة هي حل لمسألة الشر، لان البشر سيئو. الخلق في نظره .....إلا أن الإنسان صالح بطبيعته .....فماذا الذي يدفع ب هالة هذا الدرك من الفساد أن لم يكن التبدلات التي طرأت على بنيته و. النجاحات التي حققها و المعارف التي حصلها؟.

و لهذا روسو أراد الجمع بين فوائد الحالة الاجتماعية و فوائد الحالة الطبيعية، و هذا هو موضوع العقد الاجتماعي الذي ألفه في 1762م، بحيث حاول روسو إيجاد شكل شراكة يحفظ للأفراد المساواة و الحرية اللتين كانتا لهم بالطبيعة و إيجاد طريقة تربوية تجعل الإنسان يحافظ في المجتمع على جودته المطبوعة و على براءة الحالة الطبيعية و فضائلها.

[18] أكثر تفصيل العودة الى : ويليامز، " تأثير روسو على الرأي السياسي " ، المجلة التاريخية الانجليزية، العدد 191، أوت 1933.

[19] **كوندورسيه**: 1743- 1794) ماري جان أنطوان نيقولا كاريتا، المركيز دي كوندورسيهMarie Jean Antoine Nicolas Caritat, marquis de Condorcet، فيلسوف ورياضي وموسوعي فرنسي، وأحد أبرز المشاركين في الثورة الفرنسية عام 1789، ومن أشد أنصار ڤولتير حماسة، وصديق دالمبير. وُلد في بلدة ريبمون Ribemont بمقاطعة بيكاردي بفرنسا. تسلّم العديد من المناصب الإدارية الرفيعة، كان آخرها رئيساً للجمعية التشريعية في باريس عام 1791. وعمل محرراً في جريدة «أخبار باريس» ثم أسس «جريدة المجتمع». وقد نادى كوندورسيه بإصلاحات عديدة على مستوى التعليم والدستور والمساواة والديمقراطية، لكن اتهم عام 1793 بالخيانة

تاريخ الإرسال: 2021/06/06 تاريخ القبول: 2021/07/01 تاريخ النشر: 2021/10/02

والخروج على مبادئ الثورة، والتآمر ضد اتحاد وتماسك الجمهورية الفرنسية، فهرب ولزم مخبأً في باريس، كتب فيه تحفته وكتابه الشهير «مجمل صورة تاريخية لتقدم العقل البشري) Esquisse d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain «نشر عام 1795 بعد وفاته)، وكان ينوي أن يكون مقدمة لكتاب أكبر في تاريخ العلوم وآثارها الاجتماعية، لكن القدر عاجله إذ خرج من مخبئه فقبضت الشرطة عليه وأودع أحد السجون القريبة من باريس، ومات في الليلة نفسها، ربما من الإرهاق أو مسموماً.

[20] **جول فيري**: ولد فيري جول فرانسوا كميل في 5أفريل 1832م في مدينة سان دبي، و توفي في باريس 17 مارس 1893م استهل حياته المهنية في سلك المحاماة، انتخب نائبا لدى الهيئة التشريعية ، ثم أصبح والي محافظة السين، في 1879م عين وزير مكلف بالتربية الوطنية ، ثم عين رئيس للحكومة الى غاية 1885م.

[21] **ألكسيس دو توكفيل**: أو ألكسيس دو طوكفيل) بالفرنسية (Alexis de Tocqueville :) 1805م – 1859م: هو مؤرخ ومنظر سياسي فرنسي .اهتم بالسياسة في بعدها التاريخي .أشهر آثاره :في الديمقراطية الأمريكية 1840 – 1835 والنظام القديم والثورة 1856.

[22] اليكس دو طوكفيل، **نصوص عن الجزائر في فلسفة الاحتلال و الاستيطان**، ترجمة إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2008، ص12.

[23] علي عبد اللطيف أحميدة، **مابعد الاستعمار و القومية في المغرب العربي** (التاريخ و الثقافة و السياسة)، مركز دراسات الوحدة العربية،ط1،بيروت، 2014م، ص40.

[24] الخطاب الإيديولوجي يرتكز على ثلاث محاور رئيسية الديمقراطية و حقوق الإنسان و اقتصاد السوق.

[25] محمد شريف ساحلي، **تخليص التاريخ من الاستعمار**، ترجمة محمد هناد و محمد الشريف بن دالي حسين، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، الجزائر، 2002، ص.19.

[26] **هيتيرونومي**: مصطلح في فلسفة الأخلاق، يقصد به الوضع الذي تكون فيه إرادة الفرد غير مستقلة، عكسها .Autonomie .